استراتيجية اشتغال التراكمات الخطابية في أدب الوهراني

د. سليم سعدلي
جامعة برج بوعريريج (الجزائر)
د. جراح وهيبة
جامعة ميلة (الجزائر)

الملخص :

إنّ كتابة الوهراني السّاخرة، وهي تبني مشروعها التأسيسي التأصيلي، استطاعت أن تتخذ لنفسها أشكالاً متعددة من السّرود(المقامات-الرسائل-المنامات)؛ إذ ابتدأت بالسّرد التاريخي والواقعي الاجتماعي، ولم تخرج عن نطاق المرجعية التقليدية والأخلاقية والإيديولوجية إلا بعد أن شبت وقوي عودها، فانتقلت بذلك إلى مرحلة الإبداع؛ أي اقتحام عوالم التفرّد، ومع ذلك بقيت مخلصة للنمط المتأرجح بين التأسيسي التأصيلي والتجريبي، والكتابة السّاخرة عنده لم تخرج، كما أسلفنا، عن هذه المغامرة ولم تحد عنها، بل واكبت هذا المسار في مداراته المربكة والمشوشة أحيانا، وخلقت من خلاله نماذج مؤسسة لتجارب لها صوتها المميز والفريد في تشكيل خطابي ممتع لا يقتصر على اليومي والاجتماعي والإيديولوجي، بل يتقاطع فيها الديني بالدنيوي، والرمزي والأسطوري بالمألوف، فهل كان من الضروري للكتابة السّاخرة، من هذا المنطلق، أن تبني استراتيجيتها دون رجوعها إلى التراكمات* الخطابية التي تتشكل بواسطتها السّخرية عند الكاتب؟.

المفاتيح: الاشتغال السردي للتراكمات الخطابية، المزج بين التأصيلي والإبداعي، وظيفة التراكم الخطابي، الأشكال الخطابية الأجناسية التي تتماهى مع إبداعات المؤلف.

لقد تمَّ استدعاء مجموعة من "التراكمات الخطابية" إلى مختبر متن الكتابة السّاخرة واستخدمت للتعبير عن مدى قابلية النص السّردي لترويض هذا الزخم السّردي بشتى أشكاله ومضامينه، فبين التأطير الذاتي الذي يسعى إليه الوهراني، والخاص بطبيعة القالب والمحتوى والموضوعات، وبين العناصر الخطابية الخارجية المستمدة من الآخر، المتمثلة في البنيات المنفتحة والمنغلقة والمتفجرة، والمسنودة إلى كثافة الخطاب السّاخر الذي يساهم في تشكيله الوهراني، والتوظيف التراكمي الذي يمكنه أن يلعب دوره الوظيفي في انبناء الصيغ الأسلوبية السّاخرة ذات الملمح المتداخل، قصد تحقيق المقاربات التأويلية والحفرية؛ أي أن الكتابة السّاخرة عند الوهراني لا يمكنها أن تكون إلا بتوفر شروط حضور الحكي الخارجي الذي يسعى بدوره إلى بناء اتساق النص القصصي السّاخر وخدمة انسجام الخطاب في أفق تعاقد نوعي بين الكاتب والمتلقي، لذلك نلاحظ أن الحديث عن "التراكمات الخطابية" في أدب الوهراني السّاخر، يدفعنا إلى استقصاء الأشكال الخطابية الأجناسية التي تتماهى مع إبداعات المؤلف، أو تتصادم مع قوالبه الخطابية السّاخرة التي تختبئ وراء اللغة المبتكرة*.

لاشك أن البنية السّردية التي يستثمرها الوهراني في كتاباته لا تستوي على قرار واحد بل تنحو مناح متعددة، إذ تنزاح عن مسار السّرد الإبداعي (الذاتي)، وتتخذ لنفسها وجهات غير معتادة ولا تأبه بأسبيقة الأفكار أو الأحداث، لأنّ المنظور السّردي الذي يهيمن في كتابات الوهراني يقتضي إشراك المتلقي من خلال دمجه في أفق انتظار الكاتب، وحسب Jean Rousst فإنّ " الكاتب لا يكتب ليقول شيئا، بل ليقول نفسه، مثلما يرسم الرسام ليرسم نفسه، لكنّه إذا كان فنانا لا يقول نفسه ولا يرسمها إلا بواسطة هذا التشكيل الذي هو العمل"[1] لذا نجد التشكيل الخطابي السّاخر عند الوهراني ينبني على أساس متواليات سرديّة تخرق نظام الحكي وتفجره من الداخل بآليتي التمدد والاتساع، حيث تنساح اللغة السّردية السّاخرة بكل عنفوانها وضراوتها عبر تشكلات ظاهرية تستمد خاصيتها الحكائية من الموروث السّردي العتيق، وللتوضيح أكثر سنقوم بفحص الخطابات المتراكمة عبر هذه الاستشهادات المقدمة.

لم تسلم خطابات الوهراني في "منامه الكبير" من التراكمات المعجمية التي يستشفها القارئ المتفحص لرسالة الغفران، فترسبات الحقل المعجمي العلائي الذي سيطر على التشكيلة الخطابية التي يبنيها الوهراني في منامه، ظاهرة للعيان، كما يوضحها هذا الاستشهاد، معجم أسماء "العالم الغيبي" في "المنام الكبير":**[الآخرة، يوم القيامة، عرصة القيامة، يوم الدين عبوس قمطرير، الجنة الفردوس حسناتي، الجحيم، الهاوية، النار، الذنوب، نزفته الأهوال أهوال الموقف، المصيبة، شدة الهلع، الخوف، ضعيف النفس، خوار الطباع، العرق، التعب الفرق، ارتياع عظيم، الحزن المقيم، الحسرات][2].** بالتوازي مع معجم أسماء "العالم الغيبي"* في رسالة الغفران، نجد:**[الآخرة، يوم القيامة، عرصات القيامة، الجنة، الفردوس، الجنان حسناتي، الجحيم، الهاوية، النار، الذنوب، البلية، الهلع، القل، الرعدة، الفزع الأكبر، ضعيف منين، العرق، الفرق، ترهق، نهكه، الموقف، المحشر، الصراط][3].** وإذا أردنا الوقوف عند التراكمات الخطابية التي تسطرها بداية "المنام الكبير" نجد أن رسالة الحافظ العليمي كانت سبباً مباشرا في تأليف الوهراني لمنامه، ونجده أيضاً يشير لورودها في بداية منامه، إذ يقول:" **وصل كتاب مولاي الشيخ الإمام الحافظ الفاضل الخطيب المصقع الأمين جمال الدين ركن الإسلام شمس الحفاظ تاج الخطباء، فخر الكتاب زين الأمناء، أطال الله بقاءه وجعل خادمه من كل سوء وقاه**"[4]. يمكن القول إنّ هذا النموذج يسترجع قصة "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري فحضور "رسالة المعري" في النص المركز وفي المتفرع عنه يخلق وظيفة مضاعفة للنوع، بل يساهم في تعضيد تمفصلات الخطاب السّاخر وأنسجة اللغة، وينفتح السّرد على إشارات واضحة تحيلنا إلى "الترسّبات الخطابية" المتجلية في قاع رسالة المنام الكبير.

بالتوازي مع ما ذكرناه، فرسالة "ابن القارح" كانت سبباً مباشراً في إبداع المعري لرسالته، وعن ورود الرسالة يقول المعري:" **وقد وصلت الرسالة التي بحرها بالحكم مسجور، ومن قرأها مأجور، إذ كانت تأمر بتقبل الشرع وتعيب من ترك أصلا إلى فرع**"[5]. تناول الوهراني في مقدمة منامه الكبير الإشارة إلى ورود رسالة صاحبه الحافظ العليمي وكيف استقبل الوهراني كتابه بكل فرح واطمئنان فكان " **ألذ من النار في عين المقرور وأعذب من الماء البارد في صدر المحرور وتناوله(يتحدث الوهراني عن نفسه بصيغة "هو") فكان في قلبه أحلى من الدراهم وأنفع لجراح البعد من الدارهم فلما فض ختامه وحط لثامه، أبصر خطا أجمل من رياض الميطور(قرية من قرى دمشق)، ولفظا أرق من نسيم الروض الممطور، قد استفتحه سيدنا بكل لفظ مذهب، فيه من التعاظم إلى كل مذهب**"[6]. بالتوازي مع هذا فقد تناول المعري في مستهل قسمه الأول –المقدمة- ورود رسالة ابن القارح، مبرزا غبطته باستقبالها، فوصفها بأجمل الأوصاف، مثلما مر بنا مع المعري إذ قال عنها: " **غرقت في أمواج بدعها الزاخرة وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة، ومثلها شفع ونفع وقرب عند الله ورفع، وألفيتها مفتتحة بتمجيد صدر عن بليغ مجيد**"[7]. هذه التشكيلة الخطابية التي يؤسسها الوهراني في رسالة "المنام الكبير" تنتقل من الخطاب الموروث(خطاب المعري) إلى الخطاب الذاتي المبتكر؛ أي من منطق الحكي باعتباره يخضع إلى مجموعة من الأشكال السّردية المتداخلة، بما فيها التقنيات التي يشتغل عليها الكاتب(الوهراني)، وهو يطرز نصه بشتى الآليات الأسلوبية، كالحقل المعجمي والافتتاحية(البسملة) التي يكتشفها القارئ بعد فحص الخطابات المتراكمة، وبعد التحقق من هوية النص المتراكم(رسالة الغفران)، مازجاً كل هذا على مسار النصوص الأخرى بأنماط الشخوص و الزمن والوصف والأحداث وباقي التمفصلات الأخرى، كما ستبينها الأمثلة التي تنهض عليها النصوص الأخرى كالمقامات* مثلاً:

استهل الوهراني مقامته الثانية في شمس الخلافة بجملة استهلالية مفادها:" **حدثنا عيسى بن حماد الصقلي قال: لما اختل في صقلية الإسلام..**"[8]، وفي آخر مقاماته يفتتحها الوهراني بقوله :" **قال الوهراني: دخلت مدينة صقلية**"[9]. بالموازاة مع ذلك فإنّ الهمذاني بدأ مقاماته واستفتح حكيه بقوله: " **حدثنا عيسى ابن هشام قال...**"[10].

من جهة أخرى، حينما نتأمل مقامة الوهراني في شمس الخلافة، نجده يقول: " **لما اختل في صقلية الإسلام، وضعف بها دين محمد عليه السلام، هاجرت إلى الشام بأهلي وجعلت جلق* محط رحلي، فدخلتها بعد معاناة الضر ومكابدة العيش المر**"[11]. ومثل ذلك أيضا ما ذكره الوهراني في أخر مقاماته قائلاً:" **دخلت صقلية في الأيام المتولية**"[12] إذ يعلم الوهراني القارئ أنه قصد موطنا بذاته، فمرة قصد دمشق ومرة قصد صقلية، ونقابل ذلك بما ورد في المقامة البصرية للهمذاني بقوله على لسان البطل:" **دخلت البصرة وأنا من سني في فتاء(الشباب) ومن الرأي في حبر وشاء(ضرب من البرودة اليمانية)، ومن الغنى في بقر وشاء(اسم جمع للشاة أي أنه كان صاحب ماشية)، ونجده في المقامة المارستانية يقول:" دخلت مارستان(موضع يعالج فيه المجانين من الناس) البصرة**"[13]، كما لم يخرج عن هذا الإطار العام في المقامة المغزلية بقوله:" **دخلت البصرة وأنا متسع الصيت، كثير الذكر**"[14].

وأخيراً نقول أنه بعد إعلان الوهراني عن السفر في مقامته(شمس الخلافة)، والذي تداخل كما رأينا مع مقامات الهمذاني، نلفيه يقوم بسرد الحدث العام للمقامة مع اختلاف مضامينها من خلال تنوع الفضاءات واختلاف التفاصيل وتباين المرامي. والخطاب بكونه ينقل رسائل معينة إلى متلق ما تجعله ينفتح على "الخطابات المترسبة"* في الإبداع المُقدم، فالسّرد السّاخر عند الوهراني -كما أشرنا إلى ذلك- ينغمر في أتون النص الحكائي الخارجي، به يستقوي وعليه يستند؛ إذ أنّ النص الذي يفتتح به الوهراني مقامته والمعنونة ب "شمس الخلافة" يرحل فيه السّرد عبر مقامات الهمذاني في متخيل النص السّردي الذي يسعى الوهراني إلى تشكيله لذا أوردنا هذا التقابل الوارد في النص السّالف.

مهما نوّع الوهراني أسلوبه في التدرج لصياغة باقي المقامات، فهو يستعيد إنتاج نفس "الرسالة الخطابية" نفسها التي يثيرها النص المقامي عند الهمذاني، كما ستبينه هذه المقاطع فها هو الوهراني في مقامته البغدادية، وبعد الاستهلالية التي بدأ بها مقامته نلفيه يقول: "**لما تعذرت مآربي واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي(...) فتقلبت بي الأعصار، وتقاذفت بي الأمصار، حتى اقتربت من العراق، وسئمت من الفراق فقصدت مدينة السلام(مدينة بغداد)، لأقضي حجة الإسلام، فدخلتها بعد مقاساة الضر ومكابدة العيش المر**"[15]. من جهة أخرى وبعد الاستهلالية يدخل الهمذاني مباشرة في متن مقاماته، وكثيراً ما يبرز للمتلقي سفراته وجولاته في مختلف الديار والأمصار، في حين يحدد مقصده و وجهته في مقامات أخرى. ففي مقامته الكوفية مثلا قال بعد الاستفتاحية:" **كنت وأنا فتي السن أسند رجلي لكل عماية وأركض طرفي لكل غواية، حتى شربت من العمر سائغه ولبست من الدهر سابغه، فلما انصاح النهار بجانبي ليلي، وجمعت للميعاد ذيلي فوطئت ظهر المروضة(الناقة) لأداء المفروضة(حج البيت الحرام)**"[16]. ويتجسد منحاه المذكور في قوله أيضا: " **طفت الآفاق حتى بلغت العراق**"[17]، وقوله في مقامته القريضية: "**طرحتني النوى مطارحها حتى إذا وطنت أرض جرجان الأقصى**"[18]، وقوله في مقامته المكفوفية أيضاً: "**كنت أجتاز بعض بلاد الأهواز وقصاري لفظة شرود أصيبها وكلمة بليغة أستزيدها فأداني السير إلى رقعة فسيحة من البلد**"[19]. تصور لنا هذه المقاطع ما هو مرتبط بالواقع المتعفن والشاذ الذي عاشه الوهراني، لأنّ هذا التنوع يمكنه من تحميل الخطاب السّردي السّاخر معان تستوفي شروط البلاغة السّردية، لذلك تتناسل التنويعات الخطابية في نصوص عدة، كما رأينا فهذه الأساليب المتنوعة التي يتداخل فيها كل من صوت المؤلف والسّارد الغائب(الهمذاني) والحاضر بخطاباته المترسبة في قاع التشكيلة الخطابية المنجزة، تجعل السّرد معرضاً إلى مجموعة من التحويلات التلفظية والملفوظية الخاصة بتجليات التقاطع بين سردين، أولهما يتمثل كخطاب منجز يعمل على التقاط التفاصيل الآنية وكل ما يرتبط بها، وثانيهما يتمثل كدعامة تقف عليها الخطابات(موروث الهمذاني والمعري) القابعة في النصوص المنجزة (منامات ومقامات الوهراني). إنّ السّرد الذي ينبني على هذا التقاطع يستدعي إشراك المتلقي في الأحداث ويدفعه إلى الإمساك بتلابيب الجزئيات المترسبة في قعر التشكيلات الخطابية هذا يظهر من خلال إشارات قد ترد في الحكي بطريقة مباشرة. وهذا ما نجده في مقدمة رسائل الوهراني فالمقدمة -كبقية النصوص- ماهي إلا تشكيل جديد لأطر

سابقة ومن ثم "يمكن أن يشكل خطاب المقدمة، أو ما يقوم مقامه من الخطابات الأخرى البديلة، دالاً خاصاً"[20] موحيا بما سيأتي مثلما هو الأمر بالنسبة للوهراني الذي نجده في مقدمة رسالته عمد إلى إبلاغ أصدقائه بسبب كتابة الرسالة التي كان مفادها اطلاعه على قصيدة نظمها "التاج الكندي" يمدح فيها نفسه ويفتخر فيها بمعرفة سائر العلوم دون إقامة الدليل على ذلك، وقد استهلها الوهراني بقوله: "**عبد مولاي فلان الرجل-أطال الله بقاءه- ينهي أنه أبصر اليوم للكندي قصيدة ميمية،** إلى غاية قوله:" **قليل العقل قليل الحياء قليل الفضل قليل التوفيق**"[21]. بالموازة مع ما ذكرناه، بدأ الجاحظ رسالته بحديثه عن أحمد بن عبد الوهاب دون مناقشته لادعاءات خصمه، وقد استهل متن رسالته بقوله: "**كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول(...) كان كثير الاعتراض لهجا بالمراء، شديد الخلاف**"[22].

لقد استغل الوهراني متن رسالته في إقامة الدليل والبرهان على قلة عقل وحياء وفضل وتوفيق خصمه بمناقشته له من خلال أبيات القصيدة التي نظمها، والتي لا يرى الوهراني فيها قيمة تُذكر، وما قاله الوهراني في متن رسالته يؤكد ما ذهبنا إليه: "**أما دليله على قلة عقله(...) وأما دليله على قلة عقله وحيائه(...) و أما دليله على قلة فضله(...)**"[23]. وبالمقابل نلفي الجاحظ قد ناقش في متن "رسالة التربيع والتدوير" الادعاءات الباطلة لخصمه المرتبطة بهيأة أحمد بن عبد الوهاب، وسنّه وعمله، كما عمل الجاحظ على تعريف الحسد والمزاح والجد، هذا فضلا عن الأسئلة المتنوعة التي طرحها الجاحظ على خصمه، ومما جاء في متن الرسالة، قوله:"(...) **إنك لا تعرف الأمور ما لم تعرف أشباهها، ولا عواقبها ما لم تعرف أقدارها، ولن يعرف الحق من يجهل الباطل...**"[24]، وقوله أيضاً:" **ما هذا الغيظ الذي أنضجك، وما هذا الحسد الذي أكمدك، وما هذا الإطراق الذي قد اعتراك، وما هذا الهم الذي قد أضناك**"[25]. فالوهراني إذا تأثر ببنية متن رسالة التربيع والتدوير للجاحظ في خصمه عبد الوهاب، وحاكاها عبر متن رسالته في خصمه "التاج الكندي"، بدءا من بنية المقدمة بما فيها الداعي إلى كتابة الرسالة ووصولا إلى المتن. والحال أن الوهراني -وهو يغامر في كتابته المنجزة بتقمصه لأدوار متعددة- ينتقل في الوقت نفسه إلى تلفظات أخرى، تتخذ من ضمير الغائب**[قليل العقل قليل الحياء قليل الفضل قليل التوفيق]** آلية تواصلية، خطابية، تستلهم رزنامة من المعاني التي تؤطرها أنساق وأسيقة، وبالتالي تجعل من السّرد والخطاب بنية متعدية إلى فعل تحولي يعيد تشكيل التعالق الذي يجمع بين أنسجة النص وما يرمي إليه.

- الخطابات المقلدة عند الوهراني بين التحول والسّخرية :ماذا يريد الوهراني أن يصنع بلغته السّردية، خاصة إذا كانت تملك كل مقومات العجيب؟ نستطيع القول إذن، ومن هذا التقديم السّابق، وعبر العلاقة التي تربط بين الواقعي والفكري، بأن المتخيل الذي ينتسجه الكاتب يتمثل صورا مفارقة في التأطير البنائي للحكاية والصوغ الأسلوبي الذي ينحرف عن المسار العادي للسّرد، لذلك يلاحظ أن هذا الانتقال من الواقعي إلى الغريب، يبدو أنه من عناصر خلق "التحول الكتابي" المبني على التوتر والدهشة وفي الوقت ذاته، معرض لتوجيه الخطاب إلى الآخر بصيغة فيها إشارات ارتيابية تشي بالتنكر والسّخرية، بحيث تصبح اللغة السردية في العجيب خارقة للنظام المتفق عليه، ومقتحمة من اللامألوف للراهن واليومي اللذين لا يتغيران حسب تعبير روجيه كيوا[26]، والسّخرية في مثل هذه الخطابات تعمل بذكاء " لتحويل الشيء أو المنظر الذي ترصده إلى صورة دميمة لتسقطه في النهاية من عالم المثل ومن حسابات الجمال الذي قد يكون في كثير من الأحيان واقعاً تحت وهم الاتصاف بها، فيبدو مثيراً للضحك، أو يمكن أن نعتبر ذلك في الواقع أسلوباً مجديا من أساليب السّخرية أو فناً من فنونها ذات القدرة العجيبة"[27]. وفي رسالة كتبها الوهراني إلى مجد الدين بن عبد المطلب* وزير تقي الدين، نلمح بعض هذه الإشارات، يقول السّارد: "**عبد مولاي الوزير الأجل السيد الفاضل الأوحد مجد الدين شرف الإسلام شمس الخلافة بهاء الملة أوحد الرؤساء سيد العراقيين أطال الله بقاه وأدام علاه وكبت حسدته، كتب هذه الأحرف على حال عجلة شديدة وعنده من الشوق والحنين مثل ما عند أهل الفيوم إلى المولى تقي الدين وإنما علم المملوك حقيقة ذلك لأنه صعد إليها في هذه الأيام ليتفرج على صنعة يوسف بن يعقوب**

ويبصر آبار ابن أخي يوسف بن أيوب(...)، فجلس فيه مفكرا ومعتبرا بما كان فيه من الأنس، وما صار إليه من الوحشة فخنقته العبرة شوقا إلى صاحب المكان فلم يشعر إلاّ والحائط الشمالي قد انشق وخرج منه شخص عجيب الصورة ليس له رأس ولا رقبة البتة وإنما وجهه في صدره ولحيته في بطنه مثل بعض الناس في يده اليمنى زربول وفي اليسرى شمشك عتيق فقمت إليه خوفا وهيبة..."[28]. ففي هذه الرسالة نرى أن التداخل الحاصل بين الكتابة السابقة هو أصلاً متمثل في درجة التحول من كتابة مألوفة إلى أخرى غير مألوفة، **[فلم يشعر إلاّ والحائط الشمالي قد انشق وخرج منه شخص عجيب الصورة ليس له رأس ولا رقبة]**؛ لأنَّ الوهراني يحاول أن يغالب صراعه المتأرجح بين مراسلة القضاة وبين البحث عن وسيلة خطابية يكون قوامها الاستخفاف بشتى أنواع الغريب؛ إذ أن هذه الثنائية التضادية في اللّغة السّردية، تكاد تطغى على نصوص الوهراني.

تتكرر إذن الصورة الخطابية القائمة على التحول، وتحاول اللّغة السّردية من خلالها أن تولد شكاً، هذا الأخير يضطلع بمهمة التشويش أو الالتباس، بمعنى أن مسافة التوتر التي هي بين النّص والمتلقي تخضع بدورها إلى عنصر الإدهاش أو التردد أو الإبعاد بتمظهراته المفارقة، فلا غرابة أن يكون السّارد هو من يقوم بالفعل السّردي، لأن وظيفته أساسية وإلزامية[29] أما اللّغة السّردية فتنقل كل ما يمكنه أن يكون بخصوص تحولات الأفعال والحالات والوضعيات.

وإذا كان الوهراني يستند في نصوصه إلى التحول، فإن ما نلمسه أيضا هو خطاب السّخرية كمعادل موضوعي يبني عليه الكاتب أبعاد نصوصه، ففي الرسالة نفسها، نجده يقول: **[أعلم أن الله تعالى ما خلق مواضع منازل العز والروضة إلاّ للفسق والفساق، فما يقدر المولى تقي الدين يعاند الله].** يتوجه الوهراني بسخريته التي تسخر من كل شيء، تسخر من الفوضى التي عمّت البلاد المشرقية وكذلك الوزراء(تقي الدين مثلاً)، تسخر من ذاتها ومن الآخر باعتباره عنصراً مناقضاً لها، وإذا كانت بنيات النصوص في معظمها قائمة على التحول، فإنّها تحاول أن تأخذ صيغ الأساليب الحكائية المتداخلة والمتقاطعة مع السّرد القديم، وهي على العموم "رسالة نقدية" يلمس قارئها أنّها تختلف عن رسالة الغفران التي يعفّ فيها أبو العلاء المعري عن كل لفظ مشين معيب، على أنّ الوهراني يميل إلى الأسلوب الدارج في عصره ولا يتورع من إيراد ألفاظ بذيئة وفاحشة من خلال مواقف ومشاهد تعج بالسّخف والمجون للتعبير عن الانحلال الخلقي الذي انتشر بين كبار الدولة في عصره، فهو لم يدع رذيلة اجتماعية ولا نقيصة وجدها في أهل زمانه إلاّ وكشف عنها بجرأة وصراحة نادرتين. دون أن ننسى أنه يحاول تجديد نمط "الكتابة السّردية السّاخرة" من منظوره الخاص، بتجريبه لتقنيات الحكي العجيب الذي اعترى رسائله.

يمكن القول بأن التشكيلة "الخطابية السّاخرة" التي يسعى إلى تشكيلها والتي صرحنا في التقديم الأول بأنّها جزء من "**التراكمات الخطابية التراثية**"، ثم صرحنا في التقديم الثاني على أنها قائمة على **التحول والتوسل بالغريب،** قائمة بالدرجة الأولى على أساس خدمة استراتيجيته المقصدية، فهو غير ملزم أن ينتحل بناءه ولغته وكافة آلياته من نص آخر، قد يتصادم معه وقد يتشبه به، ولا يمكنه أن يكونه هو، ومن منظور آخر، فهذه العملية "إنّها لعبة الطروس المضاعفة، كل طرس يحمل في طياته كتابات سابقة تعرضت للمحو وتمت عملية الكتابة فوقها بشكل آخر، لكنّها وهي تمحى تترك بعضا من آثارها خلفها لتدل عليها بطريقة خفية ولتشير إلى حيواتها الماضية"[30]، لذلك نلمح أن القاص، وهو يشتغل على هذه التقنية، يؤثر الإمساك بها إلى النّهاية، بحيث يستثمرها بتنام، ويستدرج من خلالها نصوصا تتعدد في طرح جملة من القضايا والأفكار. هذه اللّعبة تستدعي بنيات تحولية لاتمكث في المكان والزمان نفسيهما، لأنّها كتابة قصصية لا تحتمل الانزواء في ركن ظليل، وبالتالي فهي تحمل بذرة نضجها وشغب أسئلتها في ثناياها، هكذا تتبدى الكتابة السّردية السّاخرة عند الوهراني كشجرة خضراء، لكنّها تخفي وراءها كثافة غابوية لاحصر لها. تبدو إذن الكتابة السّردية عند صاحبنا، من خلال هذه القراءة، أنّها تتسم بمجموعة من السّمات الفنية والجمالية، دون إغفال حقها في محاولة النبش عن المعدن الثقيل الذي يترسب في قاع المجتمع، وقد لاحظنا كيف أن خطاب الوهراني السّردي كان

محملاً بتراكمات خطابية متنوعة، لا تقتصر على الإشارات فقط، وإنّما ترتهن بضبط المقصدية والمراد من الكتابة، في حين أن اللغة السّردية في تعدديتها لم تكن منمذجة كما هو شأن لغة المقامات والرسائل التقليدية، بل اتسعت إيحاءاتها لتشمل بنيات تحولية ولها امتدادات سخروية، لأنّها تحاول إخضاع النص القصصي في النهاية إلى عنصرين أساسيين، هما: بناء نسقه الاتساقي وتفاعلية انسجام برنامجه السّردي من خلال مستويي القراءة والتأويل.

لم يستطع الوهراني التخلص من السّابقين وظل منغلقاً، حبيساً للتقليد غير قادر على خلخلة السّياق الذي يجري فيه الأدب وتلقّيه، رغم إعلانه عن تفوقه، لأنّه استعمل نفس المفاهيم والقضايا والقيم الجمالية التي كانت سائدة، وبالتالي الانمحاء أمام النماذج، التي لم يستطع التخلص منها. إنّها سلطة النّسق وسلطة الثوابت التي يصعب تجاوزها.

فعلى الرغم من أن الوهراني حاول أن يبرز تفوقه على المشارقة، فإنّه: لم يتفوق عليهم في فن جديد، فقد ظل حبيس نسقهم، فالآليات التي احتكم إليها مستقاة من النسق القديم. حاول الوهراني أن يجدد لكن سلطة النسق حالت دون ذلك، أنتج قراءة تبين اطلاعه الواسع ومعرفته بالأدب ونقده وتاريخه، لأن التفوق يقتضي تجاوز وخلخلة الأطر القائمة، وبناء أطر جديدة على أنقاضها.

لا نستطيع إعادة بناء منظومة خطابية، إلاّ بالاعتماد على مجموعة من الخطابات ويتم ذلك على نحو يكون الغرض منه هو العثور خلف العبارات نفسها على قصدية الذات المتكلمة وعلى نشاطها الواعي، وما كانت ترغب في قوله، بل وعلى بعض التجليات اللاشعورية البارزة، فيما قالته صراحة أو ضمناً. يتعلق الأمر في هذه الفكرة باستعادة النص الرفيع اللامنظور الذي يسري ما بين السطور المكتوبة ويزاحمها أحياناً. فتحليل مثل هذه الخطابات هو دوماً وباستمرار تحليل يسعى إلى البحث عن التراكمات المتسترة وراء الخطابات المنجزة.

عند تفحص هذه النصوص بتمعُنٍ، نجدها متميزة بإشارات ودلالات يمكن حصرها في تطعيم المسرود الإبداعي، الشيء الذي يجعل منها ذاتاً متفتحة في سخريتها وتعريتها للواقع المشرقي. وعندما نتمعن في مرجعية هذا التراكم الخطابي، نجده يعود إلى الحالة التي عاشتها وتعيشها هذه الذات الساردة، حالة التهميش والاستغلال والإقصاء. هنا نوع من "التنافس والصراع" بين ذات كلية متكاملة متخيلة وإحساس داخلي بالتعنيف والتشظي هنا تدافع تلك الأنا الأولى المبكرة عن نفسها بشكل عدواني ضد ذلك الشعور بالتفكك والانقسام، وضد كل ما يستثير هذا الشعور.

استطاع "خطاب الوهراني" عبر لغة كثيفة، هادفة، أنْ يترجم عنف الواقع العربي(المشرقي) بطريقة ساخرة تبتعد عن التقريرية المباشرة، إذ يُنوع في تقنيات سرده على مستوى توظيف السّخرية خاصة، باعتبارها من أهم آليات إنتاج المعنى فيه. من خلال هذه القراءة، نستشف كيف يصوغ النص "مختبر الكتابة الإبداعية" بالكلمة الناقدة والسّاخرة في الوقت ذاته. استعاد الوهراني شفافيته في "أدبه السّاخر" بعد أن مارس التوسل الخطابي؛ لأنّه كافأ فشله بفشل الهمداني والمعري والجاحظ، فرحلته المخفقة إلى "المشرق" كانت مدفوعة بهاجس الثأر، وهي ردّة فعل على العصبية التي مارسها العماد الأصفهاني عليه.

القارئ للنصوص المقتبسة يجد بأنَّ الكاتب يقوم عادة ببعض الحركات البهلوانية من خلال بعض الشخصيات، ليزيح الملل عن قرائه، فيرسم صوراً كاريكاتورية من أجل خلق جو شاعري متناغم يستفرغ فيه مجهوده بأعجوبة، كما يستعير بمفارقات عميقة تنهك القارئ وتجعله يتخطى القراءة الآلية. ونشير إلى أنّ معظم هذه الشخصيات تمثل سلبيات وشرور المجتمع المشرقي كالمادية والسطحية والتعصب، كما تهاجم مبدأ الزعامة الأيديولوجية والأساليب الملتوية التي تكون وراء العمل السياسي، فضلاً عن انتقادها وهجائها لأسلوب التصريحات الجوفاء والمذاهب التي تتخذ الدين شعارا.

لقد أراد بإثارة "الخبر السردي السابق" في نصوصه السّردية السّاخرة أنْ يلفت نظر القارئ إلى ما ينطوي عليه هذا العالم من إتقان الصنع الذي لا يُلتفتُ إليه عادة وهو يعلم أنَّ للنفوس كلفاً بالتأثير والتأثر؛ فالناس يستجيبون لحكاية الوقائع الماضية كما يستجيبون للمواقف الهزلية المضحكة. للأخبار المقتبسة، الخبر هنا -مثل الهزل والذم- وظيفة

جمالية يستوقف السَّرد بخبره الغريب المتلقي لتأمل العالم من حوله والنظر فيه وتدبره، على نحو ما يستدعيه للاستماع بما يعرض عليه من أخبار وأحداث تنقلها الرؤيا التي حدثت في المنام، ليست وظيفة الغرابة التي تكتنف أخبار الوهراني في النهاية سوى استنفار الذهن لتأمل العالم الماورائي والاستمتاع بأسراره.

إنّ كتابة الوهراني تحمل وعياً تاريخيا، فقد تعامل مع منظومة التراكم الخطابي لحث المتلقي على أخذ العبرة واستنتاج قيمة معرفية ذات تمحيص وتدقيق، وتحفيزه لمساءلة حاضره عن ماضيه القريب، وجعل ماضيه حاضراً لقراءته عبر متون سردية تفسح المجال أمام الشخصيات البسيطة التي تعمل على تأثيث الجمالي والفني والأدبي.

يتضح إسهام الخطابات في بناء سياقات التأثير لتطعيم الإبداع، سواء في كتب خاصة بالمقامة أو في مؤلفات تاريخ الأدب وغيرها، يمكن القول بأنها خطابات سيقت لتكون إشارة دالة على النص المبتكر كالمنام، فكأنها موضوعة للاستدلال على التوجه العام الذي تبناه المؤلف صاحب المقامات والرسائل والمنام. قد يستغرب القارئ من الحضور الكثيف للشواهد التي يتخذها الكاتب حجة لبناء عمله السّردي، ففي كل موضوع يتطرق إليه يكون "التراكم الخطابي" دعامة يقف عليها السرد، حيث تتجلى نصية النص من خلال فاعلية رسوبية الطبقات الخطابية؛ إذ تبرز من خلالها قدرة الكاتب على التفاعل مع نصوص أخرى ومعانقتها لإنتاج نص جديد يحتفظ بخصوصيته رغم كل الإمدادات. تعمد بعض خطاباته إلى تراكمات خطابية تذيب كل علامة تحجز بين النص المنجز والمستدعى، ليأتلفا في نسيج واحد دون إيحاء شكلي بتوظيف نص خارجي، وهنا يكون الاتكاء على ثقافة المتلقي التي ستكون المسؤولة الوحيدة على فرز النصوص المستدعاة والتقاطها. الأجناس الأدبية كالمقامة والرسالة والمنامة غير مكتملة في كونها تستمد قالبها الحكائي من نصوص أخرى، وبهذا المعنى يمكن تشبيه هذا الأدب بالعمل الفني المتكامل الذي ينهض على آلية التراكم الخطابي.

الهوامش:

* - إنّ الباحث الأركيولوجي من وجهة نظر «فوكو» هو الذي يستطيع التوصل إلى تلك العصور الغابرة المطمورة تحت الركام عن طريق الحفر والتعرية، فخلال قرون عديدة حصل تراكم لوقائع يغطي بعضها بعضاً -تماماً كما في علم الآثار- حيث نجد مدناً كاملة مطمورة تحت طبقات عميقة من التراب والرمل، إن على الباحث أن يقوم بعمل الأركيولوجي من أجل إزاحة الركام واكتشاف الطبقات العميقة للحقيقة التاريخية أو الواقع التاريخي. ينظر: هاشم صالح، بين مفهوم الأرثوذوكسية والعقلية الدوجمائية، مقدمة الترجمة العربية لكتاب محمد أركون، الفكر الإسلامي: قراءة علمية، مركز الإنماء العربي، بيروت، 1996، ص 10. وتهتم الأركيولوجيا بتحديد الخطابات في خصوصيتها وإبراز كيف أن التراكمات الخطابية التي تخضع لها تلك الخطابات يمكن إرجاعها إلى خطاب آخر، فالأركيولوجيا تتبع تلك الخطابات من خلال مظاهرها الخارجية وصورها البرانية بُغية الإحاطة بها بكيفية أفضل، غايتها في النهاية تحليل الفوارق والاختلافات الموجودة بين صيغ الخطاب ووجوهه. ويقول أيضاً:" فإن المادة التي سيكون علينا مواجهتها في تحليلنا للخطابات، هي على العموم عبارة عن ركام من الأحداث داخل فضاء الخطاب". ينظر: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص 128-129- 26.

* - العبارة المستحدثة(المبتكرة) يتحدث عنها فوكو في حديثه عن تشكل العبارات داخل الحقل الخطابي. ينظر: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، مبحث: التشكيلات الخطابية، ص 31-32-33.

1 - جاب لينتفلت، مقتضيات النص السّردي الأدبي، تر: رشيد بنحدو. طرائق تحليل السّرد الأدبي، ط1، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط،1991، ص 89.

2 - منامات الوهراني، ص 23 -43-58-46-21-24-33-54-59-32-41-28-37-24-29-40.

* - للإطلاع أكثر على المقارنة التناصية العميقة التي عقدت بين معجم الغفران ومعجم المنام، ينظر: بحث سوميشة خلوي، التناص في منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، رسالة ماجستير مخطوطة بوهران- جامعة السينيا قسم ،اللغة والأدب، 2006 ص 178-180 وما بعدها.

3 - أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، تح وشرح: عائشة عبد الرحمن، دار المعارف بمصر، ط5، 1969، ص 248-308-309-529-249-215-259-261-27-254-364-186-368-250-240-252-253-256-262-334.

4 - منامات، م، س، ص 21.

5 - أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، ص 381.

6 - منامات الوهراني، ص 17.

7 - أبو العلاء، م، س، ص 140.

* - في بحث التناص الموضوعاتي والأسلوبي والمعجمي في مقامات الوهراني والهمذاني، نجد مقارنة تفصيلية ينظر: سوميشة خلوي التناص في منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، ص 105، 147، 190.

8 - مقامات الوهراني، (مقطع من مقامة في شمس الخلافة)، ص 97.

9 - مقامات الوهراني، (مقطع من المقامة الصقلية)، ص 219.

10 - لقد ترددت هذه العبارة دائما في افتتاحية مقامات الهمذاني، ودون تغيير أو تبديل. ينظر: الهمذاني، بديع الزمان مقامات الهمـــذاني، ص 5-381.

* - تنويه: اسم الغوطة، وقيل دمشق، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البدان، ج3، ص 126.

11 - مقامات الوهراني، (مقطع من مقامة في شمس الخلافة)، ص 97.

12 - م، ن، ص 219.

13 - مقامات الهمذاني، 185.

14 - م، ن، ص 249.

** - اجتنابا للاستشهادات الكثيفة وتجنبا للحشو الذي قد يتهمُ به الباحث، نعمد إلى إيراد التراكمات المعجمية التي طغت على الحقل المعجمي الذي اختاره الوهراني لنسج مقاماته، كما يوضحه هذا الاستشهاد، معجم المقامات:[يشتم أنفخ، لعن أسود، حمار الثـــور، التـــيس، الخـــروف، الأفاعي، أو الخرا، المرحاض، الكنيف، نحس، ثقيل الفضل، يمدح البغدادية، الصقلية، العراق، مدينة السلام(بغداد)، الشام.]. مقامات الوهراني، ص 2-5-97-7-1-20. بالتوازي مع الحقل المعجمي للألفاظ التي يختارها الهمذاني لبناء مقاماته، نجد: معجم المقامات: [يشتم، ينفخ كلب، قرد، دودة الكنيف، البول، وسخ، نحس، ثقل، الفضل، الشرف، يمدح، البغدادية، العراق، بغداد، الكوفة]. مقامات الهمـــذاني ص 238-97-329-330-20-291-13.

15 - مقامات الوهراني، (مقطع من المقامة البغدادية)، ص 10.

16 - م، ن، ص 35.

17 - م، ن، ص 215.

18 - م، ن، ص 05.

19 - م، ن، ص 119.

20 - الطاهر روابنية، شعرية الدال في بنية الاستهلال في السرد العربي القديم، مجلة السيميائية والنص الأدبي: أعمال ملتقى معهـــد اللغـــة العربية وآدابها، جامعة عنابة باجي مختار، منشورات جامعة عنابة، 17/15 ماي، 1995، ص 142.

21 - رسائل الوهراني، ص 222.

22 -أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، الرسائل الأدبية، "رسالة التربيع والتدوير"، تقديم وتبويب وشرح: علي أبو ملحـــم، ط2، دار مكتبـــة الهلال، بيروت، لبنان، 1991، ص 431.

23 - رسائل، الوهراني، ص 222.

24 - الجاحظ، رسالة التربيع والتدوير، ص 434.

25 - م، ن، ص 434.

26 - ينظر: تزفتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصديق بوعلام، ص 50.

27 - حامد عبده الهوّال، السّخرية في أدب المازني، ص 36.

* - مجد الدين بن المطلب: ورد ذكره في حوادث سنة 501ه عزل الخليفة لوزيره مجد الدين بن المطلب برسالة من السلطان بذلك، ثم أعيـــد إلى الوزارة بإذن السلطان وشرط عليه شروطا منها، العدل، وحسن السيرة، وألا يستعمل أحدا من أهل الذمة. ابن الأثير التاريخ الكامل، ج8، ص 251.

28 - رسائل الوهراني، ص 152-153.

29 - ينظر: جاب لينتفلت، مقتضيات النص السّردي الأدبي، ص 95.

30 - نور الدين محقق، عبد الفتاح كيليطو في كتابه" أنبئوني بالرؤيا"، الوقوع في دائرة السحر الشهرزادي، ملحق الاتحـــاد الاشـــتراكي.17 يونيو2011، العدد،9821، ص 4.